مقاربة المصاحبات النَّصية في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي

د. هدى عمَّاري جامعة امحمد بوقرة بومرداس

الملخص

تشير المقاربات النقدية العربية الّتي استهدفت النّص الروائي إلى الأهمية البالغة يوليها الروائي للمصاحبات النصية إذ نجده يركز على صياغتها وضبط شكلها ولونها كونها تقدم صورة أوليّة عن طبيعة العمل الروائّي لهذا يحرص على لفت انتباه القراء استدراجهم لبعث فعل القراءة واستزادة البحث عن الدلالات المتوارية خلف عبارات النّص وبهذا يتحقق للعمل الأدبي جماليته و يظفر بنفعيته.

تسعى هذه الدراسة إلى الوقوف على السمات الفنية والدلالية للمصاحبات النصية في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي ممثلة في رمزية العنوان وحضوره داخل المتن وعتبة الإهداء و كلمة الناشر.

Abstract:

Approaches indicate the Arab Monetary that targeted the novelistic text to the extreme importance attaches to the novelist of the accompanying text as we find it focuses on the formulation and its form and color offering an initial form of work this novelist wished to draw the attention of the readers drawn to revive the reaction of reading and any additions or explanations search for indications of hidden behind the words of the text, thus achieved literary work the beauty of it and the wins benefit.

This study seeks to stand on the substantive features and the semantic associated with the text in the novel body memory accommodation is second Ahlam Mostghanmi represented in the symbolic title and attending within the Board and its presence in script in the dedication and the publisher statement.

يقوم أيّ عملٍ روائي على جملة من البنيات الأساسية الّتي تنسج بينها وشائج صلةٍ تجعل منها نظاماً متكاملاً ونسقاً منسجماً، يقدّم من خلاله الروائّي رؤيته للحياة ونظرته للواقع بلغة فنية

تسمو بالقارئ إلى آفاق رحبة تحقق له لّذة أدبيّة، ويظهر العنوان كبنية صغرى محورية في الرواية وعتبة نصيّة أولى لسياقاتها السرديّة، وممّا لاشك فيه أنّ اختيار عنوان معيّن بات قصدا مقصودا وأصبح ضرورة ملحة لاستقطاب القراء وجذبهم لمطالعةالنّص بعناية و اهتمام كبيرين.

في نقدنا القديم وجد اهتمام بهذه العتبات، نذكر المقريزي في خططه أنه قال ما نصه " اعلم أنّ عادة القدماء من المعلمين قد جرت على أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب، و هي الغرض و العنوان و المنفعة و المرتبة و صحة الكتاب و من أي صناعة هو و كم فيه من الأجزاء، و أي أنحاء التعاليم فيه " [1] و ليس المقريزي فحسب من تحدث عن العتبات ؛ إذ ذكر الجاحظ جزئيات عنه في البيان و التبيين "إن لابتداء الكلام فتنة و عُجبة في إشارة منه إلى المقدمة.

و في العصر الحديث تزايدت الدراسات النقدية والأبحاث السرديّة اهتماما بالعتبات مع جيرار جنيت في كتابع العتبات غير أن المصطلح أثار اضطرابا داخل الساحة الثقافية العربية و مدونتها النقدية؛ فسعيد يقطين يستعمل مصطلح المناص، و محمد بنيس و عبد الفتاح الحجمري يستعملان مصطلح النص الموازي أما فريد الزاهي فيوظف المحيط الخارجي أو محيط النص الخارجي.

عبر هذا الفحوى يتأكد سبب جنوح المبدعين إلى توظيف عناوين مركّزة المعاني موحية الدلالات، وتبدو الرواية أوفر حظاً و نصيباً من الأجناس الأدبية أخرى عناية بعتبة العنوان، فيجد كاتبها نفسه معنيا باختيار عنوان ملائم دلالياً و جمالياً يساعد على فهم خصوصية النّص الأدبّي ويحدد مقاصده، فالعتبات تؤدي "الدور التواصلي الهام الّذي تلعبه في توجيه القراءة ورسم خطوطها الكبرى، لدرجة يمكن معها اعتبار كلّ قراءة للرواية بدونها بمثابة دراسة قيصرية اختزاليَّة من شأنها إلحاق ضرر كبير بالنَّص، و تشويه أبعاده و مراميه . "[2]

إنّ المناصّ عتبة النّص الّتي تجسد الأبعاد البنائية و الدلالية، و تحقق القيم الفنيّة و الجماليّة للأثر الأدبّي و على هذا الأساس، فإن العنوان علامة تفضي إلى غياهب النّص ، وتقود إلى فك الكثير من طلاسمه، وتعمل على شدّالملتقى للعمل الروائّي نفسياً و معرفياً، بما قد يحيل إليه داخل النص أو خارجه، فهو"وإن كان يقدم نفسه بصفته مجرد عتبة للنص، فإنّه بالمقابل لا يمكن الولوج إلى عالم النّص إلاّ بعد اجتياز هذه العتبة، إنّها تَمفصُل حاسم في التفاعل مع النّص عندما يستميل القارئ إلى اقتناء النّص و قراءته يكون تريقا محفزا لقراءة النّص وحينما ينفُر من تلقّي النّص يصير سُمًّا يفضي إلى موت النّص و عدم قراءته . " (3)

إنّ المتتبع لمعظم الدراسات المقاربة للعنوان، يتبين له بشكل لا يدع مجالا للشّك الأهمية القصوى الّتي يحظى بها ، إذ لهعلاقة وثيقة بالنّص الّذي وسم به، فهو " مرسلة لغوية تتصل لحظة ميلادها بحبل سري يربطها بالنّص لحظة الكتابة و القراءة معا، فتكون للنّص بمثابة الرأس للجسد نظرا لما يتمتع به العنوان من خصائص تعبيريّة و جماليّة كبساطة العبارة و كثافة الدلالة و أخرى إستراتيجيةيحتل الصدارة في الفضاء النّصي للعمل الأدبّي."(4)

ينفتح عنوان الرواية ذاكرة الجسد على معاني مختفية تحت هذا التركيب اللّغويّ و في الوقت ذاته يشكل انزياحا على الدلالة الأولية، من خلاله تُقدم صورة شعرية حينما شُبه الجسد بالعقل الّذي يحمل ذاكرة تطوي بين تلافيفها ذكريات ووقائع وأخبار، وقد حُذف المشبّه به العقل، وترك قرينة لفظية تدل عليه وتتحقق به "ذاكرة" على سبيل الاستعارة المكنية .

إنَّ السؤال الّذي يثيره القارئ من يكون صاحب هذا الجسد؟ هل يكون أحد أبطال الرواية أم أن الروائية وظفته ولا نجد له صاحباً، هكذا فإنَّ العنوان استحوذ على تفكير المتلقي الّذي يدرك أنَّ الذاكرة تكشف دوما عن مقاصد صاحبها وغاياته من سرد أحداث شغلت مكاناً في ذاكرته، وبالتالي يكون هذا العنوان تخفي وراءها مغامرات كثيرة حفرت آثارا لها على جسد صاحبها وبقيت راسخة بتفاصيلها في ذاكرته .

إنَّ الحذف المضموني والنّحوي الّذي اعترى عنوان الرواية من شأنه أن يثير القارئ ويشوقه للبحث عن الجزء المحذوف المجتزأ ليفهم النص ويصل إلى مقصد المؤلفة، ويظل تفكيره يتراوح بين ما يبوح العنوان وما يكتمه "لأنّه لا يمكن لجملة واحدة مهما كثفت من معناها أن تعبر عن أحداث وأفعال عديدة ." (5)

أما نحويا فإن لفظة ذاكرة مسند مفرد والجسد مسند إليه مفرد معرف حسب أبجديات النحو العربي نلحظ حذفا لحق هذا التركيب حيث يُفتقد ركن أساسي في هذه الجملة الاسمية، فهي إمَّا مبتدأ خبره محذوف تقديره ذاكرة الجسد التي سأرويها لكم و إمَّا خبر مبتدأ محذوف تقدير هذه هي ذاكرة الجسد؛ من الدلالات المعروفة لكلمة ذاكرة أنّها حافظة تخزن فيها الأحداث والوقائع وتُحفظ فيها الأخبار والأسرار، لكن ما المقصود الّذي تتوفاه الروائيّة من توظيفها لهذه اللفظة ؟ وأيّ جسد تريده، يتساءل المتلقي أي نوع من التجارب خاضها هذا الجسد وبقيت مرتسمة في ذاكرته، أهي تجارب وطنية أم هي مغامرات عاطفية ؟هل هي تجارب طموحة تصبو إلى التوق من المعاناة والخلاص من الواقع المرير ؟ أم أنّها تروي هزائم وانكسارات عاشها صاحبها وبقيت ملازمة له .

إنَّ الإجابة عن هذه التساؤلات يملكها النّص الّذي تربطه علاقة جدلية بالعنوان فكّل إيحاءاته تضفي بظلالها في المتن الروائّي، إنَّه يستدعي الماضي والحاضر، ولديه القدرة على التعبير عن الظاهر والخفي، فالذاكرة تستدعي الماضي المنسّي والجسد يحيل إلى الروح الغائبة، وعليه فإن ذاكرة الجسد تجعل يتوقع عناوين غائبة كأن يقول " نسيان الجسد" أو "ذاكرة الروح" ومن هنا يلج إلى مطالعة الخطاب الروائّي باحثا عن مثل هذه التوقعات لعناوين غائبة، وبالتالي تكون الروائيّة قد حققت مقصديتها حينما تمكن من تنشيط وظيفة إغراء القارئ وإغوائه .

ومادام عنوان الرواية يرتبط بمتنها ارتباطا وثيقا، حتّى وإن كانت قراءة العنوان تبرزه نصا مستقلا، له بنية خاصة وتركيب نحويّ معين إلا أن دلالتها الأولية لاتكفي استكناه كنهها وإنّما لا بد من مقاربة النّص لتعزز التصور الّذي كوّناه أو نهدمه .

وعليه لا مناص من مقاربة النّص بعنوانه وإيجاد أوجه التعالق بينهما، فالقارئ للرواية يجد أنّ ذاكرة الجسد كلمتان بارزتان بشكل واضح داخل الخطاب الروائّي، وهما تسهمان إلى حدٍ كبير في بلورة المعاني؛ من الملاحظ أن الكلمتين وردتا بصيغ متعددة ولم تحافظ خلالها على معنى واحد .

❖ صيغ الذاكرة :

تعددت صيغ كلمة الذاكرة، فقد وردت نكرة و معرّفة بالإضافة، كما جاءت في العنوان حين نبحث عنها مضافة إلى الضمير نجدها أضيفت إلى ضمير المتكلم وبخاصة العائد على (خالد بن طوبال) بطل الرواية، إذ هو صاحب الجسد المعطوب، والذاكرة السليمة حين يستحضرها يجدها وفيّة لكّل الأحداث بجزئياتها؛ ولأنّها ذاكرة شخصية تحمل خصوصيات ذاتية وردت مضافة إلى ضمير المتكلّم .

لم يتوقف توظيف كلمة الذاكرة مضافة إلى ضمير المتكلم، بل نلفي الروائيّة تجعلها ذاكرة جماعية في أحايين كثيرة، وهذا ما تشير إليه لفظة "ذاكرتنا" الّتي توضح اشتراك اثنين أو أكثر في ذاكرة واحدة من ذلك توحد (خالد) و(حياة)؛ كانت هي تلك الصبية الّتي تولى تسجيل اسمها في دار البلدية " في ذاكرة كانت هي النسخة الأخرى منها وإذا بنا نحمل ذاكرة مشتركة ." [6] ونجد اشتراكا آخر في ضمير الفاعلين يعود على خالد وحياة وزياد عند الحديث عن المآسي العربية وتوالي الهزائم [7] كما يجتمع (خالد بن طوبال) و (السي الطاهر) قائده في جبهة التحرير في ذاكرة نضاليَّة واحدة أثناء معارك الثورة التحريرية ... " تماما كالنسيان فالذاكرة في مناسبات كهذه لا تأتي بالتقسيط، وإنما تهجم عليك شلالا يجرفك إلى حيث لا

تدري من المنحدرات ... كما كان (السي الطاهر) الّذي استدرجني إلى الثورة يوما بعد آخر ، يدري أنّه مسؤول عن وجودي يومها هناك ." [8]

ويرتبط (خالد) مع (السي شريف) عم (حياة) في ذاكرة نضالية واحدة قبل أن تفرقهما توجهاتهما السياسية ومنطلقاتهما الإيديولوجية بعد الاستقلال، فد توقع البطل في إحدى الدعوات العائلية أن " يستعيد مع سي شريف ذكرياتنا البعيدة ." [9]

وعادت الذاكرة لتجمع (خالد) بصديقه في سجن الكديا الذي شاركه آلام المعاناة والإحساس الحاد باليتم ، إنّه كاتب ياسين، ذاكرة واحدة تسلمهما لقدر واحد هو الوحدة والعزلة بعدما تنكر الواقع لمبادئه وقيمه[10] كما نجد أنّ السّارد تلاعب في توظيفه لضمير المخاطب الّذي ألحقه بلفظة الذاكرة، فتارة يجعل من نفسه مخاطبا وتارة أخرى يجعل ضمير المخاطب للدلالة على ذاكرة (حياة).

أما كلمة الذاكرة، وقد ألحق بها ضمير الغائب، فجاء ليدل على الذاكرة الجماعية حينما يعود السرد للحديث عن الرجال الذين عبروا قسنطينة وتركوا فيها شيئا من ذاكرتهم ونساء قسنطينة الأخريات لهن ذاكرة حاضرة داخل المتن الروائّي " . [11] مازلت أذكرهم، أولئك الّذين تعودنا أن نتحدث عنهم بالجملة، وكأن الجمع في هذه الحالة بالذات ليس اختصارا للذاكرة وإنّما لحقّهم علينا "[12]

❖ صيغ الجسد:

تعددت صيغ كلمة الجسد مثلما تنوعت صياغات كلمة الذاكرة، فقد ورد نكرة ومعرفة بـ: "ال" التعريف أو بالإضافة إلى اسم أو إلى ضمير ، وقد شكّلت إضافته إلى ضمير المتكلم ظاهرة بارزة داخل النص . كما وظّفت الروائية صيغة الجسد مضافة إلى ضمير المخاطبة " جسدكِ" في إشارة إلى جسد (حياة)[13]وفي إضافته إلى ضمير الغائب المفرد المذكر "جسده" جاء ليشير إلى جسد (زياد)[14]، وللدلالة على جسد (سي طاهر) [15]كما أضيف ضمير

الغائبة المفردة المؤنثة "جسدها" في إحالة إلى جسد (كاترين).[16] وقد أشار السارد إلى الذاكرة الجماعية بتوظيف كلمة ذاكرتنا في الوقت نفسه ربط ذلك بالجسد، فوظف اللفظ مضافا إلى ضمير الجماعة "جسدنا"عند حديثه عن الشعب الجزائري .[17]

❖ معاني الذاكرة :

ما يلاحظ أنّ كلمة ذاكرة لم تأت على صيغة واحدة بدلت على الذاكرة المفردة المتكلمة والمخاطبة والغائبة والجماعية ، وهذا انعكس بشكل واضح على الدلالات والمعاني التي حملتها، فقد جاءت معبرة عن قدرة حفظ المعلومات والمعارف واستعادتها متى ما أثيرت الذاكرة ، لهذا في الكثير من الأحيان جاء بمعنى الماضي " كنتُ أنا الماضي الذي تجهلينه، وكنت أنتِ الحاضر الذي لا ذاكرة له ." [18]

أتت الذاكرة مرادفة لتاريخ الوطن، كاشفة عن أخباره من خلال البطل الذي يطالعنا على تفاصيله الدقيقة بين الفينة والأخرى عند حديثه مع شخصيات الرواية ، أو من خلال البوح الداخلي وتداعي أفكاره وهو لا يعتب على هؤلاء المهملين لدور الذاكرة في الحفاظ على التاريخ وصونه فـ " نحن ننتمي لأوطان لا تلبس ذاكرتها إلاّ في المناسبات ، وبين نشرة أخبار وأخرى .... وسرعان ما تخلعها عندما تطفأ الأضواء." [19]

تجاوزت الذاكرة البعد الدلالي الواحد، فالقارئ يجدها ذاكرات متعددة كلما طالع صفحة من صفحات الرواية . حيث تكشف في البداية عن تجربة البطل الكفاحية المسلحة [20] رفقة سي الطاهر الّذي مكّنه من المشاركة في معارك التحرير حتّى يتخلص من ذاكرته المرهقة بشعور الوحدة المتعبة من إحساس اليتم بعدما توفيت وأدلته تاركة طفلا صغيرا بحاجة إلى الرعاية (حسان) ، ووالد منشغل بعروسه الجديدة .

انتقلت الذاكرة بعد هذا إلى محاصرة المكان والتعبير عنه، فكانت (قسنطينة) المدينة الّتي تسكن ذاكرة (خالد)؛ يعيش تاريخها وثقافتها وكفاحها ويتقمص عاداتها ويتفاعل مع تقاليدها،

فالسوار (المقياس)من حلّي قسنطينة كان بمثابة المنبّه الّذي أثار ذاكرة البطل، فأمه كان " السوار يزين معصمها؛ ولأن الذاكرة ثقيلة دائما، لقد لبسته "أمًا" عدة سنوات متتالية ولم تشكُ من ثِقله ."[21]

وتتخذ الذاكرة وجها آخرا حين يسترجع (خالد) نضاله المشترك رفقة (السي الشريف) وكون أنَّ طريق كل منهما اختلف عن الآخر بعدما دخل هذا الأخير دهاليز اللعبة السياسية وأصبح هدفه الوصول إلى الصفوف الأمامية، لم يكن له حضور قوي في ذاكرة (خالد) مقارنة بشخصية (السي الطاهر) وعلى الرغم من كل هذا " فقد كان جزءا من شبابي وطفولتي ... وكان بعض ذاكرتي ."[22]

أما شخصية (حياة)فقد شغلت حيّزا كبيرا في حياة خالد بعد لقائه بها في قاعة العرض فكان المنعطف الحاسم في ذاكرته، لهذا يجعلها صورة لذاكرته فلم تبق (حياة) جزء من ذاكرته بل هي ذاكرته نفسها.

وتتسع الذاكرة ليصير الوطن والذاكرة أمرا واحدا، وتغدو قاعة العرض ومرسم (خالد)جزءً ا لا يتجزأ من ماضي البطل وحاضره ، ولم تتوقف عند هذا الحد، بل انزاحت لتُجسّد ذاكرة الرعب كلّه من خلال ذاكرة المدن العربيّة، فقسنطينة مدينة العلم والتاريخ تحمل ذاكرتها في جسورها، جدران بيوتها، أسطح منازلها المشتركة، أزقتها الضيقة المتلاحمة، تحتفل بالأصالة والعراقة، وتعاني من الانكسار والانهزام مثل باقي المدن العربية لتظهر غرناطة ؛ معلم الحضارة العربية الإسلامية ، المجد الضائع " في ذاكرة القصور العربية المهجورة "[23] بعد فقدان آخر حاكم عربي لمُلكه، يكون إعلان السقوط والانهيار، من هنا يتجه البطل إلى ذاكرته العربيّة الإسلاميّة المتشبعة بروح القومية عساه يجد عزاءً ا في ماضيها المجيد، ولكن النكبات المتلاحقة والنكسات المتوالية جعلته مثل أيّ إنسان عربي، يشعر بالقهر والخزي والانحسار .

ولم يترك البطل شيئاً في قسنطينة إلاّ وجعل له ذاكرة تُطفئ حنينه تارة وتثير حزنه تارة أخرى، فقبور الأولياء الصالحين(سيدي راشد، سيدي مبروك، سيدي محمد الغراب) بقسنطينة [24] تعد جزءا من تاريخ المدينة وتراث سكانها الذين تعوَّدوا على التبرّك لهذه الأضرحة كوجه من أوجه التقاليد الاجتماعية المتعارف عليها في الأوساط الشعبية الجزائرية .

كما رسمت ذاكرة البطل أيضاً، صورة لدار صالح باي آخر البايات[24]الّذين حكموا قسنطينة، دارٌ سُرقت أحجارها وشبابيكها وصارت هيكلا مهجورا مرتعا للمتشردين، في إشارة صريحة لعدم الاكتراث بتاريخ البلاد وإهماله تراثه وآثاره .

من هنا، فإنّ الذاكرة في جزئها المهم، عادت إلى الماضي مسترجعة أحداثه ووقائعه وإن كثرت دلالاتها فإنّها تصب في قالب واحد يصنع فيه عنفوان الشباب وتحدّيه للصعاب ومواجهة المعوقات للوقوف في وجه الاستبداد والطغيان، صورة تجسد ملامح شخصية البطل، وهكذا كانت الذاكرة واجهة تفتح أمام القارئ أفق التعرف على ذاك الجسد الّذي يصر البطل على وصفه بالمعطوب .

وفي المقابل لهذه الذاكرة الإيجابية تظهر ذاكرة تتعارض وشخصية (خالد) لم يتمكن من الانسجام مع نمط تفكيرها وأسلوب حياتها، حتى وإن أظهر محاولات لمد جسر التواصل معها، إنها ذاكرة مضادة، هي ذاكرة (كاترين) الّتي تمثل الضفة الثانية المعارضة لذاكرة الوطن، فطالما نظرت إلى العربي باستخفاف واحتقار لم يحتفل البطل كثيرا وهو يتذكر الوقائع التي جمعته بـ (كاترين).

واستنادا إلى ما سبق، نخلص إلى أنّ عنوان الرواية يحيل المتلقي إلى نوعين من الذاكرة أولهما ذاكرة ألفة وحميمية لِما في الثّورة بتفاصيلها البطوليّة، وثانيهما ذاكرة معارضة لم تنشأ بينها وبين البطل أواصر التآلف هي ذاكرة (كاترين) الممثلة لفرنسا المستعمرة،لهذا تشغل قسنطينة مكانا كبيرا في ذاكرة (خالد) وتبقى مرسومة بأزقتها وأضرحة أوليائها وجسورها في مخيلته "فسمات

المأوى تبلغ حدا من البساطة ومن التجذر العميق في اللاوعي يجعلها تستعاد بمجرد ذكرها أكثر ، مما تستعاد من خلال الوصف الدقيق لها [26] فحضور قسنطينة في لم الرواية لم يكن حضورا جغرافيا حقيقيا ، وإنما رسم السّارد معالمها وتفاصيلها بخياله عبر ذاكرته .

❖ معاني الجسد :

تشكل كلمة جسد مفتاحا لفك بعض مغاليق النّص وأساسا ترتكز عليه معانٍ عدة فقد ارتبط في البداية بالعطب والعجز الدائم، وجسد (خالد) يحمل شهادته معه، ذراعه المبتورة تشهد على تضحيته في سبيل القضية الوطنيّة، إن وجود هذا الجسد في بلاد المنفى الاختيار يجعله يقيم علاقات استفزازية عابرة مع نساء عابرات، ركّز الخطاب الروائّي على إحداهّن (كاترين)إلاّ أنّه لم يتمكن من الاستمرار معها ولم يتآلف معها ولم تجمعهما علاقة عاطفية قوية، وهذا ما يبرر رغبته الجامحة في الحصول على جسد (حياة) لكن لم يتسّن له ذلك .

أمَّا جسد حياة فإنّه يحمل هو الآخر جروحا خفية، إنّه جسد عرف اليتم منذ الصغر، يمثل وجه قسنطينة الباهر الذي يُخفي آلاما وأحزانا، إنّه الجسد الّذي " لا يكترث إلاّ به ولا يلامسه هو إلاّ في أحلامه وعتمة ليله ."[27]

أمَّا الجسد الثالث، فيتجلى بصورة واضحة في الموديل العاري المعروض في قاعة رسم، كان البطل عاجزا عن رسم شيء آخر غير وجهها . " بينما كان الآخرون يتسابقون في رسم جسدها العاري ، المعروض للوحي في قاعة الفنون الجميلة ."[28]

جسد (كاترين) جمعته بـ(خالد) رغبات جنسية متكررة، غير أنّها زالت حينما التقى بـ(حياة) ، وبالتالي فإنّ علاقته بجسدها لم تكن سوى نشوة عابرة غذّتها الوحدة والشوق إلى أنيس يطفئ لهيب الغربة ، وبمجرد ظهور (حياة) تخلّص (خالد) من شعوره بالحاجة إلى (كاترين).

وفي إشارات عابرة، تحّدث الراوي عن جسد والده المسكون بإقامة علاقات جنسية مع نساء عابرات"فقد كان وليّا يغرس في جسده السّفود الأحمر الملتهب بالنَّار." [29] وعبّر الراوي عن

ارتباط الإغراء بالجسد عند حديثه عن نساء قسنطينة " يستعرض مثل العادة حتى ثيابهن الداخلية ...ليتظاهرن بغِناهنَّ الكاذب في معظم الأحيان .أو ليُقنِعن أنفسهن فقط ، أنّهن ما زلن برغم كّل شيء قادرات على إغراء الرجل ."[30] ولم يفته أن يذكر ما جرى لجسد أمه وماُ رسم عليه من وشم وجروح لما عانْته من مزاج زوجها المتقلب وانهماك (خالد) في الأعمال البطولية والخروج للمظاهرات فترة شبابه مما جعلها تتحسر على سجنه وهو في مقتبل العمر " وكان أبي يطرز مغامراته جرحا ووشما على جسد (أمّا) دون أن يدري ." [31] يعرف (خالد) أن والدته لم تعش سعيدة بل عانت من القهر والظلم، وجسدها كان شاهدا على ذلك، وبقيت الذاكرة حافظة لتلك الجروح .

سعى الّسارد إلى ربط الذاكرة بالجسد كما جاء في عنوان الرواية، وكّل من أتى على ذكر أجسادهم نجده يرجع إلى ذاكرتهم، يسرد تاريخ الأجساد وتاريخ الوطن عبر ذاكرة جمعت بين الفرح والحزن، بين الانتصار والانهزام، بين الحب والموت، بين المرأة والوطن .

وإذا كانت الروائية قد ربطت أجساد الشخصيات بذاكرتهم فإنّ ذاكرة (خالد بن طوبال) تعكس مقدار وطنيته وتعلّقه بمبادئ ثورة التحرير ، وتؤكد استعداده للتضحية من أجل وطنه " ويطهر جسد حياة محملا لتخوم وحفريات المكان الجزائري ويبرز جسد كاترين معّبرا عن المستعمر الفرنسي الّذي كان طرفا في تاريخ الجزائري وثورته. [32]

❖علاقة العنوان بالنّص

يتبادر إلى الذهن تساؤل عن حضور العنوان في الخطاب الروائّي، يلفي القارئ أنّه ورد في قول الّسارد " بذاكرة تسكنها لأنها جسدك، جسدك المشّوه لا غير ." البطل يرجع إلى الماضي يتّكِئ على ظلاله يستلهم منه الأحداث والوقائع لأخذ العبرة مما حدث ، وبهذا إلى تأكيد أنه رهين الماضي ولا يفكر في مغادرته لواقع مرير لا يطيق العيش فيه " لتلحق بماضٍ لم تغادره في الواقع ."[33]

تتجلى ملامح الشخصية وطبيعة ذاكرتها في ذلك الجسد الّذي تشوَّه حين بترت ذراعه وصارت عاهته مستديمة " كانت تحمل ذاكرتك على جسدكَ ولم يكن ذلك يتطلَّب أي تفسير." [34]ففي السنوات الأولى لاستقلال الجزائر كان مثل هذا المشهد محل احترام النّاس وإشادتهم بالتضحية وتقديسهم للبطولة ومع مرور السنوات وابتعاد شبح اجتماعيّة كثيرة عن مبادئ الثّورة وقيمها، صار هذا المنظر مدعاة للخجل، يثير الشفقة والعطف في عيون الآخرين من حولك " كأنّك تخفي ذاكرتك الشخصية وتعتذر عن ماضيك لكلّ من لا ماضي لهم ." [35] ليصل السّارد إلى حقيقة يقّرها بكل مرارة " أنتِ الذاكرة المعطوبة الّتي ليس هذا الجسد سوى واجهة لها ." [36] إنَّ لفظة المعطوب وردت بشكل ملفت للانتباه تكشف عن حمولة دلالية عميقة، فالذاكرة الّتي تعود بنا إلى ذكريات الماضي تعرضت للتشويه ، والجسد الّذي ضحّى لأجل الوطن أُصيب بخيبة أمل بعدما كان مصدرا للإشادة بنضاله،أصبح مهان يُستخفُّ بمواهبه ولا تقدر إمكاناته الفنية، لم يجد هذا الجسد سوى المنفى (فرنسا) ملاذا أخيرا، يحترم موهبته لكنه يرفض الجسد المعطوب كونه يمثّل ذاكرة المواجهة المسلحة ضده، وبالتالي فإنَّ العنوان يعبر عن ذاكرة مشوّهة لجسد معطوب ذاكرةٌ لوطن بتناقض في التعامل مع مواطنيه الشرفاء وأولئك المنافقين الخونة، لم يحسن إلى الأبطال الذين صنعوا استقلاله وحققوا النّص، في حين يمجّد أولئك المتطفّلين المتملّقين.

ذاكرة الجسد تروي قصّة جسد شوّهته الحرب، لم تُعالَج إلاَّ بالبتر، لتبقى الجروح النفسيَّة محفوظة في ذاكرة تعاني الانشطار بين ماضٍ حافلٍ بالأمجاد وحاضرٍ لا تحمل أيَّامه إلا الخيبات، لهذا لا يقف القارئ عند العنوان ليجد البطل يتحدّث عن جسده المعطوب فحسب، بل يجد نفسه أمام تجليات وطن يعاني بعدما بترت مبادئه وشوّهت حقائقه التاريخية وتزيّفت فيه التشريفات حينما صار المناضل الوطني متهما والمتهم الخائن مناضلا، وبهذا تجاوزت الذاكرة حدود ذاتيّة البطل لتصبح ذاكرة الجزائر ماضيها وحاضرها .

❖ الإهداء في رواية ذاكرة الجسد:

يتعّمق فهم العنوان، وتتوسع دلالاته وتكتمل صورته بعدما يطالع القارئ النّص الموازي والعتبات الموالية لعتبة العنوان" لأنها تتكامل وتتلاقح من أجل توفير دلالة من أجل توفير دلالة حقيقية للنّص." [37] فالعنوان لوحده لا يكفي لإدراك طبيعة الخطاب الروائّي ومعرفة نوعية المادة المقترحة للقراءة، لذا يأتي دور النص بالمحيط بالمتن الروائي والذي نتصور أنّه لم يأتِ عبثا، وإنّما هو" خطاب مفكّر فيلأنّه الشيء الّذي يواجه المتلقي ويرسم انطباعاً أولياً عن ذلك النّص سرعان ما يتوسع أو يتقلّص مع القراءة ." [38]

تقدم أحلام مستغانمي روايتها في غلاف خارجي كُتب في أعلاه اسمها لتوضيح الهوية الجنسية لصاحب المؤلف، ثم ألحقته بخط أكثر وضوحا وسمكا عنوان الرواية، وفي أسفله دار النشر، وفي الصفحة الأولى كتب عنوان الرواية في وسطها، وفي الصفحة الثالثة كتب مرة ثانية اسم المؤلفة في أولها ثم عنوان الرواية في ذيل الصفحة .

في الصفحة الموالية تقدم الكاتبة إهداءا يشي بقصدية؛ فهو " الناسج الوحيد للعلاقات الحميمية والثقافية والحضارية بين الكاتب وكل من يصل إليه إهداء الكاتب ."[39]، فهو يحمل رسالة ذاتيّ ة يأتي " موطدا لمواثيق المودة والاحترام والعرفان وحتّى الولاء لما قدمه هؤلاء المهدى إليهم من عون معنوي أو مادي ."[40]

يبدو أن هذا ما دفع مستغانمي إلى إهداء أّول أعمالها الروائيّ " إلى مالك حداد ... ابن قسنطينة الذي مات متأثّرا بصمته، ليصبح شهيد اللغة العربية، وأول كاتب يموت قهًرا... وعشقا لها."[41] مالك حداد الشاعر والروائّي الجزائري المبدع بالفرنسية،عاش مأساة وطنه، لعن الاستعمار الّذي جعله سجينا في لغته الفرنسية، فوجد نفسه محروما من القدرة على التعبير بلغته الوطنية ... ليقرر . في الأخير . الصمت ؛ ابنة قسنطينة تهدي باكورة إنتاجها

الروائي إلى رجل من رجالات الجزائر عربون وفاء لروحه الوطنية وإن كان الوفاء متأخرا إلا أنه يُعرِب عن موّتها وتقديرها لشخصيته الفذّة .

أما الإهداء الثاني فأرادته لوالدها " إلى أبي ... مّرة أخرى " كونه صاحب قضية ، مناضل سابق في حرب التحرير ، قدّم للروائيّة عونا ماديا ومعنويا ، وعبارة مرة أخرى تؤكد أنها تهدي كّل أعمالها له ومن خلاله تتجلى رغبتها في إيصال الإهداء إلى أولئك الوطنيين الذين ظلوا مخلصين لمبادئ الثورة وابتعدوا عن معترك السياسة في صمت ، وتتضح في النهاية قصديتها الموجهة لتوعية القراء بهذه الشريحة المهّمشة في المجتمع الجزائريّ .

❖ كلمة الناشر

على الصفحة الأخيرة لغلاف الرواية، يطالعنا النّاشر بقوله إنَّ ذاكرة الجسد أوّل عمل روائّي لمستغانمي بيد أنَّه يقدم مغالطة كبيرة حينما حصر بداية الإبداع الروائّي النسائّي المكتوب بالعربيّة في الجزائر في شخص أحلام مستغانمي دون غيرها ، نعتقد أنَّه اتجه إلى إصدار هذا الحكم لتعزيز مكانة الرواية إعلاميا، لكنه يبقى إجحاف في حق عشرات المبدعات الجزائريات اللواتي مارسن كتابة القصة والرواية، فقد كتبت زهور ونيسي من يوميات مدرسة حّرة عام 1978 ورواية لونجة والغول العام 1983؛ بمعنى أن كلمة الناشر لم تحترم السلم الزمني للتجربة الإبداعية في الجزائر ، فبين من يوميات مدرسة حّرة 1978 وذاكرة الجسد 1988 ، سجلت جميلة زنير محاولة كتابة نصٍّ قصصي طويل .

ولكن ما يحسب جدّة للرواية حقا أنه أول عمل روائي نسائي جزائري عربي جاء على لسان رجل جزائري، رحل عبر ذاكرته إلى الماضي، وقدَّم صورا عن تاريخ الجزائر، امتزجت فيها مشاعر الفرح والحبور بمشاعر الحزن والألم، مكّن القارئ من الإقامة في عالم حميمي لم يختصر فيه ذاكرة جسده فحسب، بل كشف عن حجم الانتصارات والخيبات الوطنية والتناقضات الذاتية وعبر عن هاجس مصير وطن يتمّزق ومآل بلاد تحترق .

الهوامش و الإحالات

1- أحمد بن علي المقريزي: المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار المعروف بالخطط المقريزية دار الصادر ، 3/1

2- عبد العالي بوطيب (برج السعود و إشكالية العلاقة بين الروائي و التاريخي) ، المناهل، المغرب العدد 55 ، 1997 ، ص : 64.

3 - محمد بوعزة : من النص إلى العنوان ، علامات في النقد ، النادي الأدبي جدة ، مج 14 ، ع 53 ، 2004 ،ص : 408.

4 - محمد مفتاح : دينامية النص ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ، ط2 ، 1990 ، ص : 72 .

5 - شعيب خليفي : النص الموازي للرواية ، إستراتيجية العنوان ، مجلة الكرمل، العدد 46 اتحاد الكتب الفلسطينيين نيقوسيا، 1992 ص :92

6 - أحلام مستغانمي : ذاكرة الجسد ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر ط 1 1993 ص: 119 .

7 - ينظر المصدر نفسه . ص:.218

8 - ينظر المصدر نفسه ، ص : 34-.35

9 - ينظر المصدر نفسه، ص : .272

10 -. المصدر نفسه، ص : .385

11 - ينظر المصدر نفسه ،.ص : .115

12 - ينظر المصدر نفسه ص: .31

13 -ينظر المصدر نفسه ، ص: 41-.117

14 -ينظر المصدر نفسه ، ص: 224-.260

15 - ينظر المصدر نفسه، ص: .353

16 - المصدر نفسه ص: .91

17 - المصدر نفسه ص: 239-.319

18 - المصدر نفسه ص:.119

19 - ينظر المصدر نفسه ، ص: .136

20 - المصدر نفسه ص: .38

21 - المصدر نفسه ، ص: 61-135 .

22 -المصدر نفسه ص:85 .

23 - المصدر نفسه ، ص: 248 .

24 - المصدر نفسه ، ص: 430-431

25 - المصدر نفسه ، ص: 346 .

26 - ينظر غاستون باشلار : جماليات المكان ، ترجمة : غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان،ط2، 1984 ، ص: 50

27 - ينظر أحلام مستغانمي : ذاكرة الجسد ، ص : 41-127-176 .

28 - المصدر نفسه: ص: 178 .

29 - المصدر نفسه ، ص: 491

30 - المصدر نفسه ، ص: 365 .

31 - المصدر نفسه ،ص: 371

32 - الأخضر بن السايح: سطوة المكان و شعرية القص في رواية ذاكرة الجسد (دراسة في تقنيات السرد) عالم الكتب الحديث،إربد ، الأردن، 2011، ص: 7

33 - المرجع نفسه ص: 34 .

34 - ينظر أحلام مستغانمي : ذاكرة الجسد ، ص:.85

35 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

36 - المصدر نفسه ص : 86 .

37 - ينظر جميل حمداوي : السيموطيقا والعنونة. مجلة عالم الفكر،عدد3، مج 25، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 1997 ، ص: 109 .

38 - شعيب خليفي : النّص الموازي للّواية ، استراتيجية العنوان ص: 83 .

39 - عبد الحق بلعابد :عتبات جيرار جنيت ، من النّص إلى المناص، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون ، ط 1 ،2008. ص:99

40 - المرجع نفسه ، ص:94 .

41 - أحلام مستغانمي : ذاكرة الجسد. صفحة الإهداء